التربية في الطفولة المبكرة
تنميـــة بشـريـــة مستدامـــة

د. فيولا فارس البيلاوي(*)

مقدمة :

تقوم التربية في الطفولة المبكرة في هذا العصر – عصر مجتمع المعرفة وثقافة التعلم والتنمية – على رؤية مستقبلية لحركة التربية في سنوات ما قبل المدرسة، قوامها فلسفة ارتقائية تركز على نمو الطفل، وعلى تيسير اكتشاف إمكاناته الكامنة ومصادر إبداعاته، واعتبارًا لهذه السنوات كفترة مُثْلَى لتعلم الإبداع وإرساء مقومات الشخصية السوية التي يحملها معه الطفل في رحلة حياته.. ولم يجانبهم الصواب من قالوا: "إن الطفل أبو الرجل".

إن تربية الأطفال في هذه الفترة الباكرة الحساسة للتعلم وللتغير، وللنمو والارتقاء تجعل من العمل مع الأطفال في هذه السنوات – معلمين وآباء، ومتخصصين ومربين ومديرين، وإعلاميين وباحثين – باعثًا على الإثابة والبهجة، بقدر ما هو زاخر بالطموحات والتحديات، وعلى الرغم أيضًا من أنه قد يكون في بعض الأوقات مشوبًا بالإحباط والصعوبات. إنه مسئولية جد خطيرة وعظيمة؛ لأن هذه التربية الباكرة تؤثر في حياة الأطفال من يوم إلى يوم، وتدفع باتجاه تفتح هذه الكيانات الواعدة والباعثة على الدهشة بما تحمله من الإبداع والتقدم المطرد والمتسارع، وفي تحقيق متنامٍ ومتعاظم لإنسانية الإنسان.

لذا، فإن التربية في الطفولة المبكرة مهنة وتخصص بكل ما يحمله ذلك من معنى ومسئولية؛ فهي فن لأن المعلمة سوف تمارس عملاً ينطوي في كل لحظة على اكتشاف وجدة وإبداع. والعمل مع الأطفال في الطفولة المبكرة هو مهنة إبداع؛ لأنه عمل مع إبداعات تتكشف وتتنامي بين يوم وآخر؛ فكل طفل هو فرد مبدع في حد ذاته – وفي جوانب نموه وارتقائه كافة؛ جسميًا وحركيًا وعقليًا ووجدانيًا واجتماعيًا، وكشخصية تتجذر فيها مقومات الصحة النفسية وفاعلية السلوك والإيجابية في الحياة، أو هكذا نرجو لها أن تكون، ونرنو إلى تحقيقها.

* أستاذ بقسم علم النفس التربوي، كلية التربية– جامعة الكويت.

لماذا الطفولة المبكرة؟

الطفولة المبكرة مرحلة نمائية مُثلى لتنمية السوية والإبداعية:

إن ثمة إمكانات ومعالم مميزة لمرحلة الطفولة المبكرة تتميز بها عن غيرها من المراحل النمائية من دورة حياة الإنسان، وتتحدد بها أهمية التربية المبكرة والتعليم قبل المدرسي:

فهي مرحلة رياض الأطفال (من ٤ – ٦ سنوات حتى الالتحاق بالمدرسة الابتدائية)، ومن حيث المنظور النمائي هي في الأساس مرحلة الطفولة المبكرة (من ٣ – ٦ سنوات)، وهى تستغرق "مرحلة الحدس" في نظرية بياجيه، ومرحلة "الإحساس بالمبادأة" في نظرية إيريكسون.

إن السنوات الست الأولى من حياة الفرد هي الأساس التكويني الذي يقوم عليه بناء الشخصية؛ حيث تحدد السمات الرئيسة للشخصية. لذا، وكما تؤكد نظريات ودراسات شتى، غالبًا ما تكون خصائص نمو الطفل في هذه المرحلة التكوينية المبكرة بمثابة "مُنْبئات" لشخصية الطفل وتطور مسار نموها في المراحل العمرية التالية. فهذه الفترة العمرية تحتل موقعًا رئيسًا من تطور عمليات نمو الفرد. هذا الموقع هو قاعدة البناء والأساس الذي ترسى عليه دعائم الشخصية. وقد أفاضت المعرفة والتجارب السيكولوجية في إبراز أثر خبرات الطفولة في بناء الشخصية السوية وفي تنشيط السلوك الفعال، حتى لقد صار مبدأ "الطفل أبو الرجل" من الأسس التي يقوم عليها تفسير نمو الشخصية. وتأسيسًا على ذلك أيضًا، أفادت المعرفة والتجارب السيكولوجية بأثر الطفولة غير السعيدة والخبرات الصادمة أو غير المواتية في هذه الفترة في نمو اضطرابات الشخصية. ولم يكن غريبًا نتيجة لذلك أن تطرح بعض نظريات العلاج النفسي – وبخاصة التحليل النفسي – مبدأ تشخيصيًا وعلاجيًا مهمًا وهو "فتش عن الطفل"، أي لنبحث عن مصدر العلة في خبرات الطفولة عند الشخص؛ فبذور السعادة والشقاء عند الكبار تكمن في طفولتهم.

* والطفولة المبكرة هي "**مرحلة ما قبل المدرسة**"، أي المرحلة التي تسبق التحاق الطفل بالمدرسة الابتدائية وما يفرضه التعليم المدرسي من ضغوط وتوقعات في عمليات التعليم والتعلم، وما يستلزمه من إعداد وتهيؤ في سنوات ما قبل المدرسة.
* والطفولة المبكرة هي "**مرحلة ما قبل جماعات الأقران**"، فهي مرحلة مواتية لتعلم أسس السلوك الاجتماعي الذي يعده للمشاركة وللتفاعل مع الحياة الاجتماعية الأكثر نظامًا في المراحل التالية وما تتطلبه من عمليات التوافق.

* والطفولة المبكرة هي "**مرحلة الاستكشاف**"؛ حيث يسعى الطفل إلى معرفة بيئته بعناصرها وعلاقاتها، وكيف تعمل، وكيف يكون جزءًا منها، وما موقعه فيها؟
* والطفولة المبكرة "**فترة حساسة**" و"**مرحلة حرجة**"، فكثيرًا ما يواجه الأطفال فيها بصعوبات أو بمشكلات. فالطفل في سبيله لتكوين شخصية متميزة، يبدي نزعة قوية إلى الاستقلالية والاعتماد على النفس. وغالبًا ما يكون عنيدًا، غير مطيع، سلبيًا، أو عدوانيًا. وقد تصدر عنه سورات غضب في بعض الأحيان، وقد تراوده أحلام مزعجة في أثناء الليل ومخاوف بالنهار، كما قد يعاني من الغيرة. تلك بعض صعوبات النمو في مرحلة الطفولة المبكرة.
* والطفولة المبكرة لذلك هي مرحلة "**مستهدفة**" لبعض الاضطراب وعدم الاتزان، وذلك في خلال سعى الطفل إلى التوافق مع بيئته وضغوطها. ويتطلب ذلك حكمة في تدبير أساليب الرعاية الملائمة لوقاية الأطفال من التردي في اضطرابات انفعالية وسلوكية حادة، قبل أن تتدعم وتستحكم وتصبح نمطًا مسيطرًا.
* والطفولة المبكرة، مع ذلك، هي مرحلة "**مرنة**"، فيها يكون الطفل أكثر استجابية لتعديل السلوك؛ فالطفل في حالة من التشكل والتكوين، وبالتالي فهو قابل للتغير والتعديل أكثر من أي مرحلة نمائية أخرى. لذا يكون "تعديل السلوك" في هذه المرحلة المبكرة أكثر يسرًا وفعالية، ويكون الطفل أكثر استجابة للمواقف والخدمات العلاجية التي تقدم له. فالطفولة المبكرة بقدر ما هي مرحلة مستهدفة للاضطراب وعدم الاتزان، فهي أيضًا مرحلة يسهل فيها تعديل السلوك وإعادة الاتزان في اتجاه المسار الصحيح لنمو الطفل. ويفسر ذلك نجاح طرق تعديل السلوك (أو العلاج السلوكي) مع الأطفال في سن ما قبل المدرسة خاصة، وذلك في علاج المخاوف وبعض الاضطرابات السلوكية.
* وهذه الفترة العمرية المبكرة **مرحلة حساسة للتعلم ولاستيعاب الخبرة** التي يتعرضون لها أو نُعرِّضهم لها. فالطفل في حالة تهيؤ من داخله لاستقبال الخبرة من خارجه، من دون أن تعطلها أو تصدها إلى حد كبير استجابات متعارضة، أو من دون أن تعمل آليات (ميكانزمات) الدفاع على تقليل أو تشويه تلك الخبرة.

وتؤكد بعض النظريات والأبحاث الفسيولوجية المعاصرة أن الدماغ الإنساني في حالة دينامية نشطة، تميز نوعًا من التعلم المبكر في الطفولة يؤدي إلى تنشيط فعالية عمل الدماغ – وهو ما يسمى بالتعلم الأولي – الذي تتشكل في سياقه أنماط للنشاط العصبي الكهربي

تؤثر في نشاط التعلم لدى الطفل، وفي استجابته لخبرات التعليم في المستقبل.

لهذا تعتبر سنوات ما قبل المدرسة مرحلة مثلى للتعلم الفعال ولتوسيع ما يعرف بـ "إمكانات التعلم" (Learning Potentials) لدى الطفل، ولتحقيق النمو بأقصى "سعة" لطاقات الطفل.

وثمة بنية علمية وفيرة تتضح معها أهمية "منجزات النمو" في سنوات الطفولة المبكرة وحجمها ، فلقد استنبط "بلوم" Bloom من عدد كبير من الدراسات السابقة أن النمو العقلى للفرد في مراحله المختلفة يتطور على الوجه الآتى: فيما يتعلق بالمستوى العام للذكاء الذي يصل إليه الفرد في سن ١٧ سنة، نجد أن ٥٠% من الذكاء تتكون في سن ٤ سنوات، و٣٠% بعد ذلك بين سن ٤ و٨ سنوات، والـ ٢٠% الباقية بين سن ٨ و١٧ سنة. وبالتوازي مع هذا، يبدو أن الحياة المدرسية تتحدد في مرحلة مبكرة من الحياة. ويقول "بلوم" في ذلك إنه عندما يبدأ الطفل السنة الأولى من المدرسة الابتدائية، فإن ٣٣% من مقدار تحصيله المدرسي يكون قد تقرر بالفعل (دي لانشير، ١٩٧٧).

لهذه الاعتبارات تتضح بجلاء أهمية التعليم قبل المدرسي، وتأثير خبرات الطفل برياض الأطفال في نموه وتنشيط نموه. ويبرز من وحي نظرية (بياجيه) في نمو الأطفال وما استثارته من بحوث وفيرة، أن مدى القدرات يكون هائلاً، أما الأطفال الذين لم تمكنهم ظروفهم من الانتظام برياض الأطفال فإنهم يبدون بمستوى منخفض في هذه الفترات (بيرد، ١٩٧٦، ص ٨٣).

ويتكشف من أدبيات البحث في تأثير التربية في الطفولة المبكرة تأكيدًا على تأثير خبرات الطفل برياض الأطفال، أن هذه الخبرات تُرْسِى الأسس التي يقوم عليها بناء الشخصية، ويستطيع منها أن يتقدم الطفل على جبهات كثيرة: يظهر ذلك في الزيادة السريعة في قدرته اللغوية وحصيلته اللفظية، وفي تمكنه من كثير من المهارات الحركية ومن الاتساق الحسي – حركي. ويبدي الطفل بتأثير خبرات الروضة نضجًا اجتماعيًا أكبر يتضح في نزعته إلى تأكيد الذات والاستقلالية والتفاعل الاجتماعي مع أقرانه، وإلى التعاون والصداقة والتنافس والتعاطف، وإلى نمو صورة أوضح للذات وأكثر ثقة بها.

ومن هنا، يبرز توجهان مهمان للتربية في الطفولة المبكرة، وهما: الأول: وهو الإعداد الجيد لمعلمات رياض الأطفال (وأن يكونوا من الإناث كبديلات للأمهات ارتباطًا باستمرار دور الأم في حياة الأطفال بالروضة)، وأن يكون إعدادهن إعدادًا جامعيًا عاليًا قد يفوق إعداد

المعلمين للمراحل التعليمية الأعلى، مع الموالاة المستمرة لهن؛ لرفع كفاياتهن عن طريق برامج التدريب في أثناء الخدمة وبرامج التدريب على الفعالية المهنية والشخصية. أما التوجه الآخر، فيولي أهمية كبيرة لإعداد البرامج وبناء المناهج الجيدة التي تتفق مع طبيعة المرحلة وأهميتها، وتوفر الخبرات المواتية للنمو الأمثل للأطفال.

أهداف التربية في الطفولة المبكرة:

في ضوء تلك المكانة فائقة الأهمية لمرحلة الطفولة المبكرة، تركز التربية في تلك المرحلة، ومن منظور تكاملي ارتقائي، على أهداف رئيسة تتحدد في أهداف عامة وأهداف نوعية، فيما يلي:

(أ) الأهداف العامة للتربية في الطفولة المبكرة:

ترتبط هذه الأهداف بحاجات النمو ومطالبه في تلك المرحلة، التي ينبغي تلبيتها وتحقيقها بنجاح إبان تلك السنوات قبل مواجهة تحديات النقلة إلى المرحلة التالية – الالتحاق بالمدرسة الابتدائية. وينبغي على الآباء والمعلمين والكبار عامة مساعدة الأطفال على تحقيق النمو الأمثل لهم فيما يتمثل في الأهداف التالية:

١ – تنمية الاستقلالية عند الأطفال :

فالأطفال سوف يبدءون في هذه المرحلة في إدراك أنفسهم والتفكير فيها بوصفهم أفرادًا مستقلين وقادرين، وحيث تكون مسئولية الكبار هي مساعدة كل طفل على أن يصل إلى مستوى مناسب من الاستقلالية. ويكون هذا الهدف دومًا موضع اعتبار كبير لدى المعلم، حينما يخطط للخبرات التربوية ولأنشطة التعلم والتوجيه وموادهما ومواقفهما ؛ وهو بذلك يساعد الطفل ويسانده على أن يفعل ويسلك لنفسه وبنفسه، وأن تتاح له فرصة مناسبة لاتخاذ تصرفات وقرارات واختيارات.

٢ – تعلم العطاء والمشاركة، وتبادل المشاعر والانفعالات:

تنبثق، من خلال نزعة التمركز حول الذات عند الطفل في هذه المرحلة، قدرة نساعده على تنميتها كي يُعطي ويشارك الآخرين مشاعرهم وعواطفهم سواء مع أقرانه أو مع الكبار داخل الأسرة أو خارجها. لهذا ينبغي على المعلمة أن تساعد الأطفال على أن يشعروا بالأمان والحب والمساندة في بيئتهم الجديدة – بيئة الروضة، وعلى أن تولي أهمية خاصة لمساعدة الأطفال الذين يفتقرون في بيئتهم الأسرية إلى الحب والعطف والأمان.

٣ – تعلم التفاعل الاجتماعي:

فالأطفال، بانتقالهم من الوسط الاجتماعي الأسري إلى بيئة الروضة، يحتاجون إلى حماية ودعم من أجل تهيئتهم لتعلم العلاقات الاجتماعية ومهارات التفاعل مع الآخرين وأساليبه؛ حتى يحصلوا في المقابل على استجابات إيجابية من الآخرين.

٤ – تعلم الضبط الذاتى :

ربما ينظر الآباء والمعلمون إلى الضبط الذاتي على أنه هو النظام الذي ينمو لدى الطفل مع مرور الوقت. ولكن الضبط الذاتي في هذه المرحلة هو أن يتعلم الأطفال سلوكات معينة ويدركون الأسباب المتعلقة بها، وأن يدركوا كيف أن الاستجابات المناسبة توفر لهم وللآخرين حماية وأمانًا وتقديرًا. وبهذا الفهم ينمو لدى الأطفال أساس حقيقي للسلوك المناسب؛ أما الخوف من الكبار والتسلطية والحماية الزائدة فلا تكوّن لديهم أساسًا مناسبًا لنمو الضبط الذاتي. ومن شأن إزكاء ثقتهم بأنفسهم، فإنه يستطيعون أن يحسنوا التصرف حتى حينما لا يكون الكبار على مقربة منهم.

٥– تعلم التنميط النوعي والأدوار الإنسانية :

يرتبط نحو الشخصية بتعلم الأطفال ما السلوكات والأدوار المناسبة المتعلقة بالنوع (ذكر، أنثى)؟ وتفضيلات هذه السلوكات والأدوار؛ فالتنميط النوعي sex-typing يعزز تلك الخصائص والمعالم التى تتلاءم مع كون الأطفال ذكورًا أم إناثًا وحيث تلعب التوقعات الثقافية في ذلك دورًا كبيرًا، مع اعتبار أن هذا التشكيل للمعالم المبكرة لشخصية الأطفال وفقًا للنوع يتم في إطار المساواة وعدم التفرقة بين الجنسين.

٦– ابتداء فهم الجسد ورعايته :

ففي هذه المرحلة المبكرة تعمل الأسرة والمدرسة على مساعدة الأطفال على فهم أجسادهم وكيفية رعايتها بالتغذية والعادات الصحية السليمة، وحمايتها من الأخطار والأضرار.

٧– تعلم المهارات الحركية وممارستها:

فالمهارات الحركية الكبيرة والدقيقة تكون أساسًا حقيقيًا للتعلم في هذه المرحلة، وخصوصًا من خلال أنشطة اللعب، وما لهذا الشكل من التعلم من تأثير في جوانب النمو الأخرى للطفل.

٨- ابتداء فهم البيئة وتعزيز الشغف بالعالم الفيزيقى :

فالأطفال يبدون بطبيعتهم شغفًا بالعالم المحيط بهم سواء البيئة الطبيعية أو البيئة المشيدة وما تزخر به من معالم ومواد وأدوات؛ وهي لذلك ينبغي أن تكون مصدرًا طبيعيًا لخبرات تعلم الأطفال، تساعدهم بدورها على تكوين اتجاهات إيجابية نحو البيئة والتحكم في العالم الفيزيقي المحيط بهم.

٩- الاستثارة اللغوية للأطفال :

فالأطفال في هذه السنوات ينبغي أن نوفر لهم بيئة ثرية لغويًا ومُثْرية لغويًا، ومن خلال الأشكال المختلفة للإثراء اللغوي الذي يرتبط بكل الخبرات التي تقدمها للأطفال في هذه المرحلة.

١٠- تنمية مفهوم إيجابي عن الذات:

يبدأ المفهوم الإيجابى عن الذات في التكوين في هذه المرحلة؛ حيث يرتبط بخبراتهم في الأسرة ومع الأقران؛ لذا ينبغي أن تكون خبرات إيجابية ومفعمة بالبهجة.

١١- بداية تعلم المواطنة :

تتحدد بدايات التربية للمواطنة منذ الطفولة المبكرة من خلال خبرات منظمة، يتعلم منها الأطفال المشاركة والتعاون، والاحترام المتبادل، ومهارات التحادث والإنصات والعمل الجمعي، وآداب التعامل وغيرها من صور العلاقات المتبادلة الحميمة، وتكوين اتجاهات إيجابية نحو الآخرين.

١٢- تهيئة الطفل للتمدرس في التعليم الابتدائي:

فالتربية في الطفولة المبكرة تتوجه خبراتها لتحقيق النقلة النوعية في تعلم الأطفال ونموهم، إلى التعليم الشكلي الرسمي في المدرسة الابتدائية، وما يستلزمه من التهيؤ والاستعداد؛ لكى تتم هذه النقلة الارتقائية بيسر ومن دون معاناة ولا اضطراب.

هذه الأهداف العامة للتربية في الطفولة المبكرة يتكامل بعضها مع بعض؛ لتكون موجهات رئيسة لتخطيط البرامج والمناهج والأنشطة التي تتضافر لتنمية الجوانب المختلفة لارتقاء الطفل – جسميًا وعقليًا ووجدانيًا واجتماعيًا وإبداعيًا.

(ب) الأهداف النوعية:

وهي ترجمة إجرائية للأهداف العامة للتربية في الطفولة المبكرة، مصنفة وفقًا للجوانب

الرئيسة لنمو الأطفال في هذه المرحلة، وذلك تبعًا لتصنيف الأهداف – كما أقره "بلوم" وغيره – كأهداف معرفية، وأهداف وجدانية، وأهداف أدائية.

(١) الأهداف المعرفية:

- تنمية الحواس عند الطفل وإثراؤه بالخبرات الحسية.
- تنمية نزعة الطفل إلى الاستطلاع والاستكشاف.
- تكوين نظام من المفاهيم المتعلقة بالتصنيف والترتيب والسَلْسَلة، وبالزمان وبالمكان، وبالكم، وبالعلاقات.
- التعرف على خصائص الأشياء والظاهرات وإدراك العلاقة.
- إثراء الحصيلة اللغوية عند الطفل.
- إثراء الخيال عند الطفل وتوظيفه في تنمية الابتكار.
- تعريض الطفل لبعض الخبرات والمواقف التي تدعوه إلى التفكير والتساؤل والاستنتاج.
- التمييز بين الصواب والخطأ وإدراك معايير السلوك.
- إدراك نماذج من السلوك المرغوب.
- مساعدة الطفل على التعبير عما اكتسبه من معلومات.
- مساعدة الطفل على استخدام الوسائط التكنولوجية المناسبة والألفة بها كمصادر لتعلمه.
- مساعدة الطفل على الإفادة مما تعلمه في مواقف جديدة.

(٢) الأهداف الوجدانية :

- إشباع حاجة الطفل إلى الحب والعطف.
- إشباع حاجة الطفل إلى التقدير والاستحسان.
- تنمية الإحساس بالثقة بنفسه وبالآخرين.
- تنمية روح التواد والانتماء والارتباط العاطفي مع الآخرين.
- تنمية روح المشاركة الاجتماعية مع الأقران.
- التوحد مع نماذج إيجابية من الكبار والصغار.
- تنمية المبادأة والتلقائية.
- إغناء حياة الطفل بخبرات النجاح والإنجاز.

- تنمية إحساس الطفل بالكفاية والاقتدار.
- تنمية الضمير والقيم الروحية والأخلاقية.
- تنمية مشاعر الانتماء إلى الوطن العربي.

(٣) الأهداف الأدائية (نفسية – حركية):

- إتقان بعض المهارات الحركية.
- التمكن من بعض المهارات المعرفية مثل الملاحظة والاستنتاج والمقارنة والتصنيف والتعميم.
- التمكن من مهارات ما قبل القراءة، ومهارات ما قبل الكتابة، ومهارات ما قبل الحساب.
- تنمية قدرة الطفل على حل المشكلات.
- التمكن من مهارات الحل والتركيب وتناول الأشياء.
- التمكن من المهارات الأولية والمناسبة للتعلم الإلكتروني في هذه المرحلة.
- التمكن من مهارات الاتصال اللغوي والتعبير والمحادثة.
- التمكن من مهارات المشاركة الاجتماعية مع الأقران.
- تمكين الطفل من النشاط التلقائي والسلوك الاستقلالي.
- اكتساب الطفل عادات السلوك الأخلاقي.

إن أهداف التربية في الطفولة المبكرة تؤلف هكذا نظامًا متكاملاً من الأهداف، غايته التنمية الشاملة للشخصية، وتحقيق النمو المتكامل والمتوازن للطفل.

الإمكانات الكامنة في الطفولة المبكرة كمصادر لتوظيفها في تحقيق أهداف التربية في الطفولة المبكرة:

تنطوي الطفولة المبكرة على "إمكانات" متميزة وهائلة للنمو، هي "مصادر" التنمية للأطفال قبل المدرسة. وعليه، فإن بناء البرامج والمناهج والأنشطة في رياض الأطفال ينبغي أن يفيد وظيفيًا من "مصادر" النماء التي يتفرد بها الأطفال في هذه المرحلة بخاصة. وهذه المصادر هي:

- الفعالية البدنية والنشاط الحركي.
- اللعب نشاط مسيطر في هذه المرحلة.
- النزعة إلى المبادأة والاستقلال والمخاطرة والتجريب.

- الخيال الخصب والإيهام.
- الاستطلاع والاستكشاف.
- المحاكاة والاقتداء.
- النزعة إلى المشاركة الاجتماعية مع الأقران.
- الضمير في نمو.
- مفهوم الذات في نمو.

لذا تتوجه التربية في الطفولة المبكرة إلى توظيف هذه الإمكانات على أساس تنظيم خبرات التعلم في سياق أنشطة متميزة:

- فخبرات التعلم عند الأطفال في سن ما قبل المدرسة تتأتى في معظمها من خلال التنقيب والبحث والاستكشاف، والتخمين، والتساؤلات، وتناول الأشياء، واللعب، والحركة، وغير ذلك من أشكال النشاط الخلاق.
- خصوبة الخيال عند الأطفال، بالإضافة إلى ما سبق، تجعلها فترة مواتية لنمو الإبداع.
- الاستثارة اللغوية للأطفال في سن ما قبل المدرسة عن طريق إثراء حصيلتهم اللغوية، والمحادثة والتفاعل اللفظي معهم – مدخل وظيفي فعال لتنميتهم عقليًا.
- يَخْبر الأطفال في هذه المرحلة إحساسًا بالثقة بقدر ما تتاح لهم خبرات من النشاط الاستقلالي تعبر عن التلقائية، وفي جو من الحرية والضبط.
- النشاط الحركي واكتساب الخبرات والمهارات الحركية لها ارتباطها بنمو إحساس الطفل بذاته وثقته فى إمكاناته، وبنموه المعرفي واللغوي والاجتماعي.
- تحتل خبرات التعلم بالملاحظة أهمية كبيرة في هذه المرحلة؛ حيث يميل الطفل إلى محاكاة "نماذج" من السلوك الملاحظ من الآخرين وإلى الاقتداء بها.
- الأطفال في هذه المرحلة أكثر ألفة ببعضهم، وأكثر نزوعًا إلى تبادل التعزيز الاجتماعي بينهم فيما يعرف بتعزيز الأقران؛ وهو ما يفسر ازدياد النزعة إلى المشاركة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي بين الأطفال.

المعالم النمائية الرئيسة لتنظيم خبراتّ التعلم والنمو للتربية في الطفولة المبكرة:

تنتظم الخبرات التربوية في الطفولة المبكرة وفقًا للمعالم النمائية الرئيسة المميزة للطفولة في هذه المرحلة العمرية التي ترسم مسار نمو الطفل في هذه الفترة المهمة والحساسة من بناء

الإنسان، وتشكيل المعالم الرئيسة لنمو شخصيته. وتتحدد هذه المعالم النمائية التي نهتدي بها في تنظيم خبرات التعلم والنمو في الطفولة المبكرة بالجوانب المختلفة للنمو، مع اعتبار تكاملها وتفاعلها، فيما يلي:

في الجانب الجسمي:

- الأطفال في سن ما قبل المدرسة نشطون، ويستمتعون بالنشاط لأجل النشاط ذاته، ويستطيعون التحكم في أجسامهم. وهذه الخاصية تتطلب من مناهج الروضة أن تزودهم بفرص كثيرة متنوعة للحركة والجري والتسلق والقفز، وأن تنظم هذه الأداءات الحركية بتوجيه وضبط من المعلم.
- يحتاج أطفال الروضة – بسبب تفجر النشاط عندهم ونزعتهم إلى العنف أحيانًا – إلى تنظيم فترات من الراحة من آن إلى آخر. والمنهج في ذلك ينبغي أن يتضمن جدولاً بالأنشطة الهادئة بعد تلك الأنشطة العنيفة، وتوجيهًا لنشاط الأطفال حتى لا تتحول الاستثارة المصاحبة للنشاط الحركي إلى صخب وشغب.
- لما كانت العضلات الكبيرة عند أطفال الروضة أكثر نضجًا من العضلات التي تمكنهم من التحكم الدقيق في الأصابع واليدين، فإن المنهج ينبغي أن يعتمد على أدوات كبيرة للنشاط والأداء كالفرشاة وأصابع التلوين وأدوات اللعب ذات الحجم الكبير.
- يجد أطفال الروضة صعوبة كبيرة في تركيز أبصارهم على الأشياء الصغيرة؛ ولهذا فإن التآزر بين العين واليد ربما يكون ناقصًا. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نطبع كتب الأطفال بحروف ورسوم وخطوط كبيرة الحجم، وأن نقلل قدر الإمكان من تلك الأنشطة التي تعتمد على النظر إلى الأشياء الصغيرة.
- على الرغم من أن جسم الطفل في هذه المرحلة يتصف بالمرونة وسهولة التكيف واستعادة الحيوية والتوازن، فإن العظام التي تحمي الدماغ لا تزال لينة. ويتطلب ذلك وقاية للأطفال من الألعاب التي قد تنطوي على مخاطر قد تترتب عليها إصابات للدماغ، وملاحظة الأطفال بعناية، وتبصيرهم بذلك.
- يبدي البنات تفوقًا على البنين في كثير من جوانب النمو، وخصوصًا في المهارات الحركية الدقيقة؛ لذا يمكن تجنب الأنشطة التنافسية أو المقارنات بينهم على أساس هذه المهارات.

- إن استخدام اليدين ينضج لدى معظم الأطفال في هذه المرحلة، وإن ٩٠% منهم يستخدم اليد اليمنى، وليس من الحكمة لذلك أن نحاول الضغط على الطفل الذي يستخدم اليد اليسرى؛ كي يستخدم يده اليمنى. فليس ذلك بأمر مهم. إن محاولة إقناع مثل هؤلاء الأطفال كي يتحولوا من استخدام اليد اليسرى إلى اليمنى، قد تجعلهم يشعرون بالغرابة والذنب والعصبية والتوتر. بل ربما يتسبب عن ذلك كثير من مشكلات التوافق كاللجلجة فى الكلام أو التبول اللاإرادي.

في الجانب الاجتماعي:

- يميل معظم الأطفال في الطفولة المبكرة إلى تكوين صداقات مع أقرانهم كثيرًا ما تكون محدودة بأفضل صديق أو صديقين، إلا أنها قد تتغير بسرعة. فأطفال ما قبل المدرسة يبدون مرونة اجتماعية في التفاعل مع أقرانهم، كما يبدون رغبة وقدرة على اللعب مع معظم هؤلاء الأطفال. وعلى الرغم من أن الأطفال يميلون إلى اختيار أفضل أصدقائهم من جنسهم نفسه ، فإن كثيرًا من الصداقات بين البنين والبنات تنمو في هذه المرحلة. وإزاء هذه الخاصية النمائية، من الضروري أن تزخر مناهج الروضة بالأنشطة التي تساعد على تنمية المهارات الاجتماعية وروح المشاركة لدى الأطفال.
- تميل جماعات اللعب في هذه المرحلة إلى أن تكون جماعات صغيرة وغير منظمة غالبًا؛ فهي جماعات عرضة للتغير السريع. ولهذا إذ ينتقل الأطفال باستمرار من نشاط إلى آخر، فإن هذا يعتبر سلوكًا عاديًا في هذه المرحلة العمرية، ولا يستدعي قلقًا من جانب المعلمين، وإن كان يتطلب بعض الضبط منهم حتى لا تأخذ عملية التنقل المستمر من نشاط إلى آخر طابع عدم الاستقرار؛ وحتى يُمكِّنوا الأطفال من النمو في النشاط الذي يبدون نحوه تفضيلاً أكبر.
- كثيرًا ما تحدث مشاحنات بين الأطفال ولكنها لا تدوم طويلاً، وسرعان ما تتلاشى بالنسيان. يتطلب ذلك تهيئة "بيئة مفتوحة" للنشاط وللتفاعل تتوفر فيها أنشطة وأدوات مختلفة، وحيث تتعدد الأدوار ويسهل الانتقال من نشاط إلى آخر.
- يستمتع الأطفال باللعب التمثيلي وينبع معظم ما يبتدعونه من خبراتهم الخاصة. ويمكن الإفادة من هذه الخاصية في تنمية الابتكار عن طريق "التدريب على التخيل"، وفي التخفيف من التوتر، وفي تعلم الأدوار الاجتماعية، وكذلك في

اكتساب بعض الخبرات.

- يبدأ الوعي بالدور النوعي في هذه المرحلة؛ حيث يبدي الأطفال من الجنسين (بنين، بنات) فهمًا وتفضيلاً لأنماط السلوك الملائمة لجنس الطفل وفقًا للتوقعات السائدة في المجتمع من كل من الجنسين. ومن الضرورى أن تتوفر في المنهج أنشطة وخبرات وأدوات تساعد على تحقيق ما يعرف بـ "التنميط النوعي"، وما يتطلبه من تعلم للدور المتعلق بالنوع، ومن إثابة لأنماط السلوك الملائمة لجنس الطفل ولذًا كان أو بنتًا.

في الجانب الانفعالي:

- يميل الأطفال إلى التعبير عن انفعالاتهم بحرية وصراحة، وكثيرًا ما يأتون بسورات من الغضب كردود فعل لبعض المواقف الضاغطة؛ لذا من المرغوب فيه أن تسمح لهم أنشطة الروضة بالتعبير عن مشاعرهم بحرية؛ حتى يستطيعوا التعرف على انفعالاتهم ومواجهتها. ويقترح البعض أنه حينما نشجع الأطفال على تحليل سلوكهم عن طريق المناقشة والحوار، فمن المحتمل أن يكتسبوا وعيًا بأسباب مشاعرهم. هذا الوعى بدوره قد يساعدهم على تعلم كيفية تقبل مشاعرهم والتحكم فيها.
- كثيرًا ما تشيع في هذه السن مشاعر الغيرة بين الأطفال، بقدر ما ينزعون إلى الحصول على عطف الكبار واستحسانهم. ويتطلب ذلك من المعلم أن يحاول توزيع انتباهه واهتمامه بكل الأطفال بالتساوي قدر الإمكان؛ وحينما يمتدح أو يُثنى على بعض الأطفال، فإنه يقدم الأسباب والتفسيرات لذلك، ويؤكد لهم أن الفرصة متاحة لغيرهم.

في الجانب العقلي:

- يبدي الأطفال مهارة كبيرة في التعلم اللغوي، ويميل معظمهم إلى الكلام، وخصوصًا وسط جماعات من الأطفال. وينبغي لذلك تهيئة الفرص الملائمة والطبيعية للكلام والتحدث وتدريبهم على الإصغاء الجيد، وتوفير الأنشطة أو الخبرات (كرحلة أو كتاب أو فيلم) مما يساعد الأطفال الأقل ثقة على التعبير الكلامي.
- التخيل والابتداع من أبرز خصائص النشاط العقلي للأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة، وهو ما ينبغي تنميته في أنشطة كاللعب ورواية القصص والرسم والإيقاع. وإذا كان بعض الأطفال يبدون نزعة إلى التخيل الزائد بحيث يخلطون بين الواقع

والإيهام وما قد يترتب على ذلك من مشكلات للتوافق، فإنه يتعين تهيئة بعض المواقف التي يطلب منهم فيها وصف ما يحدث بالفعل. فمن الأهمية في هذه المرحلة تعليم الأطفال التمييز بين الحقيقة والخيال، وكيف يتعايش الواقع والخيال بعضهما مع بعض، وبحيث لا يحدث انطفاء للخيال عندهم في هذه المرحلة؛ فالخيال من أعظم مصادر الطفولة التي تتأتى خصوصًا في سنوات ما قبل المدرسة كمرحلة مواتية للتنمية العقلية ولتربية الإبداع.

تكامل المعالم النمائية في تنمية الشخصية لدى الأطفال في الطفولة المبكرة:

الكفاية والفعالية يمكن تنميتهما عند الأطفال في هذه المرحلة. فالدراسات التي أجريت على الأطفال الذين جرى تقديرهم على أنهم أكثر كفاية وفعالية تبرز عدة أسس لتنمية الشخصية السوية في الطفولة المبكرة على النحو التالي:

- التفاعل مع الطفل في مواقف كثيرة وبطرق متعددة.
- إبداء الاهتمام بما يفعله ويقوله.
- تهيئة الفرص المتنوعة أمام الطفل؛ كي يتفحص الأشياء ويستكشفها ويخبرها.
- لنسمح للطفل ونشجعه على أن يقوم بعمل أشياء كثيرة وبالتصرف في بعض المواقف اعتمادًا على نفسه بطريقة استقلالية.
- حث الطفل على محاولة تحقيق أنماط ناضجة من السلوك.
- وضع حدود حازمة ومتسقة فيما يتعلق بالأشكال غير المقبولة من السلوك، وشرح الأسباب المتعلقة بالسلوك غير المرغوب وفقًا لقدرة الطفل على الفهم، والإصغاء إلى شكاوى الطفل إذا كان يشعر بثقل هذه القيود عليه.
- إظهار أن ما يحققه الطفل من إنجازات هو موضع تقدير وإعجاب.
- إشعار الطفل بالحب بطريقة دافئة ومخلصة.

تلك هي رؤيتنا للطفولة المبكرة، ولمستقبل التربية في هذه المرحلة التي هي "فترة حساسة" و"مرحلة حرجة" من مراحل النمو الإنساني. فهي الأساس التكويني لبناء الشخصية؛ فيها يكون الطفل أكثر استجابة للتعلم ولتعديل السلوك. وهي مرحلة نشاط وفعالية، وخيال وإيهام، واستكشاف وتجريب، وغير ذلك من المقومات التي تجعلها مرحلة مواتية للتعلم والنمو – وهي مقومات الاستدامة في النمو السوي للشخصية الإنسانية مدى الحياة. وحقًا قالوا: "إن الطفل أبو الإنسان"!